الفصل الثاني والعشرون

غريزة الفخر

التقليد يتحول إلى منافسة ، والمنافسة تتحول إلى فخر وخُيلاء ، وكلاهما ظاهر الأثر فى عالم الحيوان والإنسان. فالحصان وهو بمرأى ومسمع حصان آخر ينفخ أنفه ، ويحنى رقبته ، ويرفع ذيله ، ويمشى مشية الإعجاب والصلف ، ويصهل مشيرا إلى ما كمن فى صدره من حب الفخر.

والطاووس يدِلُ فى مشيته ، وينشر ريشه ذا اللون الزاهى مباهيا به . فتجده كالعروس يختال من فرط ما منحته الفطرة من الجمال ، ويُسمع الناس صوته لعلهم يلتفتون إليه.

يبدو الفخر من الأطفال وهم على وشك المشى وعندما يستطيعون الإعراب عما يدور بخلدهم، وحيثما يشاهدون ارتياح الناس إلى أفعالهم. سرّح نظرك فى ميولهم **إذا لبسوا أجمل** الثياب فى حفلات الأفراح والأعياد تجدهم يتيهون إذا رمقتهم العيون فى غدواتهم وروحاتهم، وجل أمانيهم أن يسألوا عن نوعها وثمنها وحسن هندامها ، ويسرهم الإطناب فى ذكر أوصافها ولا يأنفون من المبالغة. ومتى عادوا إلى منازلهم ولم يجدوا للفخر مجالا طووها، واكتفوا من اللبس بما يسد الحاجة

وكما تجد الطفل مطبوعا على حب الفخر ، تجد قلوب الرجال ولا سيما أولى المواهب السامية فى الخطابة والشعر والمناظرة قد أشربت محبته ، وكلمة المديح تبعث فى نفوسهم همة وإقداما وإتقانا. وقد سمع النبى ﷺ أناسا يطرون شخصا فقال:

« لقد قصمتم ظهر الرجل » لأنه إذا يسمع المديح لا يتمالك نفسه أن يستزيد من أسبابه ، وربما طاش سهم إرادته فأورده موارد الهلاك.

عرف الصحفيون الغربيون طبيعة النساء وما يهوين من أفانين التجمل والفخر ، فلم يصفوا محفلا إلا جعلوا همتهم تفصيل ما أبدعن من اللبس ، وما أفرطن من التنسيق . وأهل الترف والبذخ يقيمون المآدب ويصفون عليها أطيب المطاعم والمشارب ، ويتأنقون فى اللبس والأكل والركوب والسكنى ليجعلوا من ذكرهم أحاديث للناس ، ولا يبالون أأنفقوا فيها جميع ثروتهم ، أم طوحت بهم طوائح الديون.

ولولا الفخر ما خاض القواد سبل المنايا برباطة جأش ، ولا دأب أساطين العلم وفرسان البلاغة فى البحث والتنقيب وهو بنية النفوس ، تهجر من أجله اللذائذ ، وتضحى بكل عزيز فى سبيله.

ودائما تطمح النفس إلى الموازنة بين ما أوتيت من فضل وما ناله الخلطاء والمعاشرون ، حتى إذا شفت الموازنة عن شرف حسبها ، وعلو مكانها من العزيمة والإرادة ، وغزارة ثروتها من المال والولد ، تجد شعور الشمم يتولاها ، فلا تحيد عن الفخر قيد أنملة. والنفس الكاملة لا تندفع حينئذ فى تيار الزهو والغرور، بل تستزيد من محاكاة نماذج الفضائل التى زخرت بها تراجم العظماء ، وربما لعبت بها فواعل الغرور فسارت بها فى أودية الصلف والكبرياء ، فتنحل رابطة الوئام بينها وبين الناس ، وتبوء بالخسران.

والفخر بالمحتد ممدود عند الأمم عامة من أسمى الأقدار وكان للعرب حظ وافر منه ذلك لأن الأصل الشريف ينتقل إلى الذرية بالوراثة كما أسهبت الكلام عنه فى باب الوراثة، أو لأن الانتساب فى ذاته يهيئ الخلق لاقتفاء أثر السلف الصالح احتفاظا بسلسلة النسب الشريف. وما أغبى من يفتخر بنسبه المتصل بالأتقياء وهو يشرد عن الصلاح. فعمله حينئذ مناقض لشرف الانتماء. قال البحترى مشيرا إلى

هذا :

ولست أعتد للفتى شرفا حتى يرى فى فِعاله حسبه

وكان كعب بن زهير مولعا بالفخر بجودة شعره ، حتى كان إذا أنشد شعرا قال لنفسه :« أحسنت وجاوزت حد الإحسان ».

وافتخر سيف الدولة بأنه أغزى الملوك ، فقد جمع نفض الغبار الذى يتلبد عليه فى غزواته ، وصنع منه لبنة ، وأوصى أن يوضع خده عليها فى لحده ، فأنفذوا وصيته. وغلا الأحوص فى الفخر بنفسه ، فقال:

وإذا سألت عن الكرام وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

ولا تكاد تجد إنسانا أنكر صولة الفخر وما له من المكانة الشماء فى النفوس ، وكتب الأدب مكتظة به وتدعو إليه إذا كانت حقا غير منتحل ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾.

تجد الروح السامية لا تكتفى بقيادة الجسم وتسلم زمامه وحده بل تود لو أنها احتلت الأجسام الأخر ، وصرَّفتها على حسب ميولها ، وحلت فيها محل التبجيل. ولا يكون ذلك إلا إذا اندمجت مصلحتها فى مصلحة النفوس ، وتجردت من الأغراض الشخصية البحتة . كان أحد الأشخاص مسافرا ، وبينما كان يطل من نافذة عربة القطار بصر بشخص مشرف على الغرق ، فمد يده إلى حبل الخطر فشده فوقف القطار ، ثم عاد فركب. هنالك أكبره الركاب ، وصافحوه بيد السرور والإعجاب . فإلى صاحب هذه النفس الكبيرة تنطلق الألسنة بالشكر ، وإلى أمثاله الذين ظفروا من العلم بغاية نبيل ، ومن الصناعة بثمرة جليلة. وتُزين صدور التاريخ بمثل هذا المجد الأثيل ، والباع الطويل ، وما ظنك بعمل صالح يعمله الإنسان يبغى به كشف جهالة ، أو إنهاضا من عثرة أو إيقاظا من غفلة ؟.

نعم قد يكون مصدر الفخر جمال البدن وصحته ، وقد يكون بالرياسة

وبالكياسة وبالبطش وبالمال والأولاد، ولو نظر الإنسان إلى عواقب ذلك لعلم أنها عرض زائل، فمصير الجسم إلى الزوال، ومصير الصحة إلى الانحلال، والقوة إلى الضعف، والمال كالمسافر يحل ويرحل.

وما أشقى من يفتخر بشيء يرقب القضاء عليه فى غده، ومن تذكر صروف الدهر وراقب تقلبات الأمور لا يطمئن له قلب، فما هى إلا كلمة القضاء حتى يتغير سعد الإنسان إلى نحس، ويتقل نعيمه إلى بؤس، وإذا قصدت إلى الفخر سبيلا فدونك العقل الكامل فهو الدعامة التى تشيد عليها جلائل الأعمال.

لو أطلق الإنسان نفسه على سجيتها ما أشفقت على البائس، ولا رحمت لوعة الفقير، بل تتبدل بالإشفاق عليه جمودا، وبالعطف إعراضا وصدودا، وبالميل جفاء، وبالحنو غلظة واعتداء. ومن عجب أنك ترى هذا الشخص عينه إذا حشر بين إخوانه يتورط إيثارا للفخر فيخرج عن طبعه، ويجود بما يزيد على وسعه، فيكون حب الفخر للخيرات وازعا، وعن الرذائل رادعا.

ولما كان الفخر محبوبا سارع إليه المفتونون بحق وبغير حق، واختلقوا الحوادث ليموهوا أنهم موسومون بالسخاء والشجاعة، واستحثوا الشعراء ليشيدوا بذكرهم، ويملؤوا الفضاء بمحامدهم، ولكن الأوهام كالضباب تتبدد إذا سطعت عليها شمس الحقيقة، ويكون حالهم كالممثلين على المسارح ينصبون أنفسهم ملوكا وأمراء يتحكمون فى رقاب العالم، ومتى انتهى التمثيل رجعوا سوقة كما كانوا. ومن أمثلة ذلك أن ابن نباتة مدح فخر الملك وزير بنى بويه بقوله:

لكل فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرين

أناخ بجنابه وانزل عليه ... على حكم الوفا وأنا الضمين

فجاء إلى فخر الملك رجل يستجديه فلم يعطه شيئا، فمضى إلى القاضى وادعى على ابن نباتة الشاعر أنه ضمين غارم، فاستمهله حتى وصل إلى فخر الملك وأخبره القصة، فسأل الرجل كم تريد؟. قال: «مائة دينار» فأعطاه إياها، ثم قال

لابن نباتة: « إذا مدحتنى فلا تعد تضمن عنى شيئا ».

وأن المتنبى سار فى البيداء فاعتدى عليه «فاتك» ولما لاذ بالفرار ذكره بقوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فاغتر بشعره الذى اعتقد صحته وكان من أمره أن تصدر لقتال خصمه ، فحاق به فخره الكاذب وأوقعه فى شرك الموت .

الفخر والطالب:

يحق للطالب أن يفتخر بتفوقه على أقرانه لأنه متفوق عليهم ، يحق له أن يفتخر بما ادخر من المال بدون تقتير ولا سفه عاقدا عزيمته على صرفه فى وجوه البر وإلا عد فخره خزيا وعارا، يحق له الفخر بالإنفاق على العجزة والبائسين تخفيفا للوعتهم وحثا لعواطف الجامدين، فإن أكثر البخلاء ينفقون المال لا حبا فى الإنفاق بل مجاراة للمحسنين ودفعا لمعرة البخل، وتسكينا لثائرة الهجائين، يحق له الفخر بإهداء الكتب للمعاهد وبالسعى لرفع منار العلم، وبإطعام اليتامى ومعالجة المرضى.

إننا ننكر عليه أن يفرغ حديثه فى قالب الفخفخة فيؤلم عواطف معاشريه وبذلك ينحرفون عنه فبخسرهم عند مسيس الحاجة ، ويخسرون به فردا عاملا من المجموع العام ، ننكر عليه أن يحبذ نفسه بأنه نال جائزة أو شهادة، أو يضعها فى منزل على مرأى من زائريه ، فإن شهادة الأعمال المبرورة خير وأبقى .

أيها المفتخر اجعل من عملك لسانا ناطقا صادقا ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ، افتخر بالجد والسهر للمصلحة ونصرة الضعفاء ، وخدمة الوطن وبذل الوسع فى ترقية شؤونه وإرشاد أهل الضلال.

واتبع نصيحة ابن المقفع حيث يقول :« إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك برتبة فى كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل ، فإن رفع الناس إياك

فوق المنزلة التى تحط إليها نفسك ، وتقريبهم إياك إلى المجلس الذى تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم وتزينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تزين هو الجمال ».

obeikandl.com